المحاضرة الخامسة: الدوله و التاريخ : نظريه هيغل في التاريخ و الدوله

إن الأمر الذي ميَّز طريقة تفكير هيجل عن غيره من الفلاسفة هو حِسُّه التاريخي الاستثنائي. ومهما كان الشكل المستخدم مجردًا أو مثاليًّا، كان تطور أفكاره متوازيًا دائمًا مع تطور التاريخ العالمي. ومن المفترض أن يكون التطور الأخير بالتأكيد دليلًا على التطور الأول.

إن حديث هيجل عن العالم الشرقي يتضمَّن العديد من التفاصيل، تتعلق كلها بفكرة أنه في المجتمع الشرقي يوجد شخص واحد فقط يتمتع بحريته، ألا وهو الحاكم، أما بقية المجتمع، فجميعهم يفتقرون إلى الحرية، لأنهم يجب أن يُخضِعوا إرادتهم للحاكم أو الإمبراطور أو الفرعون أو أيًّا كان اللقب الذي قد يُطلق على الحاكم المطلق المستبِدّ.

فلسفة التاريخ عند هيجل: (العقل يحكم التاريخ)

أوضح هيجل نظريته في فلسفة التاريخ، من خلال كتابين، هما عبارة عن محاضراته في فلسفة التاريخ أثناء تدريسه بجامعة برلين، وهما:

-1محاضرات في فلسفة التاريخ، المجلد الأول، "العقل في التاريخ" اختص بالمدخل النظري لفهم فلسفة التاريخ

-2محاضرات في فلسفة التاريخ، المجلد الثاني، "العالم الشرقي" اختص بالتطبيق التاريخي العملي لفلسفة هيجل التاريخية.

أولاً: مناهج دراسة التاريخ:

قبل أن يبدأ هيجل استعراض فلسفته للتاريخ، يؤكد أنه لا يقصد عرض مجموعة من الملاحظات العامة حول التاريخ، أو تناول تاريخ جزئي لأمة من الأمم، بل التاريخ الكلي والعام للإنسانية، تاريخ

الإنسان وتطوره الحضاري، ومَهَّد لذلك بعرضٍ للمناهج التي يمكن أن يُدرَس بها التاريخ، وقد قسمها إلى ثلاثة أنواع

أ- التاريخ الأصلي: والمقصود به هو التاريخ الذي يكتبه المؤرخ وهو يعيش أصل الأحداث ومنبعها، فهو ينقل ما يراه أمامه، وما سمعه من الآخرين كما هو.

ب- التاريخ النظري: وهذا النوع لا يقف فيه المؤرخ عند أحداث عصره وما شاهده بنفسه، بل يعرض تاريخ أمة من الأمم، أو عصرًا من العصور يتجاوز عصره، فيقوم بجمع المادة التاريخية وتصنيفها، وتبدو في هذا النوع من التاريخ طريقة المؤرخ وأسلوبه في عرض الوقائع وتفسيره لبواعثها، فلكل مؤرخ طابعه الخاص الذي يتميز به.

ج- التاريخ الفلسفي: إن الطريقتين السابقتين من طرق الكتابة التاريخية إنما تشكلان مادة الكتابة لهذا النوع الثالث إن الدراسة الفلسفية للتاريخ تعني دراسة التاريخ من خلال الفكر؛ لأن التاريخ هو تاريخ الإنسان، وجوهر الإنسان هو الفكر ومن هنا نبتت نظرية هيجل في التفسير التاريخي، وهي أن تاريخ العالم يتمثل أمامنا بوصفه مسارًا عقليًّا، وأن العقل يسيطر على العالم، وأن مسار التاريخ الإنساني إنما هو مسار تطور العقل هذه المقولة" العقل يحكم التاريخ "هي المحور الذي تدور حوله فلسفة هيجل التاريخية.

يمكن إدراك طبيعة وماهية العقل بمعرفة ما يقابله (ضده)، فالمادة تقابل العقل، وجوهر المادة هو الجاذبية، بينما جوهر العقل هو الحرية، وتكمن خصائصه كلها الحرية "ولا يكشف العقل عن وعيه الذاتي بالحرية كما يكشف عنه في التاريخ، فتاريخ العالم هو مسار يكافح فيه العقل لكي يصل إلى وعي بذاته، ولكي يكون حرًّا، ومِن ثَم فهو ليس إلا تقدم الوعي بالحرية، وكل مرحلة من مراحل سيره تمثل درجة معينة من درجات الحرية.

ويقسم هيجل المراحل التي مر بها العقل في سيره نحو الحرية إلى ثلاث مراحل:

أ- الحضارات الشرقية القديمة؛ الصينية والهندية والفارسية والفرعونية، وهذه المرحلة تتميز بأن المواطنين جميعًا كانوا عبيدًا للحاكم، وينفذون مشيئته، وهذا الحاكم هو وحده الحر.

ب– أما المرحلة الثانية، فتمثلها حضارة اليونان والرومان، فقد اتسع نطاق الحرية عما كان عليه عند الأمم الشرقية القديمة، فقد كان بعضهم أحرارًا وليس الحاكم فقط، وهؤلاء الأحرار هم المواطنون اليونان والرومان، أما الأمم الأخرى فقد كانوا ينظرون إليهم على أساس أنهم برابرة وهمج، ولهذا اتخذوا من أَسْراهم عبيدًا لهم.

ج– ما المرحلة الثالثة، فيرى هيجل أنها تتحقق في" الأمم الجرمانية"، فهم أول الأمم التي تصل إلى الوعي بأن الإنسان بما هو إنسان حر، فالروح الجرماني هو روح العالم الجديد.

ثانيا: هيغل والدولة

في فلسفة هيغل حول التاريخ، يُعتبر مفهوم الدولة دورًا مهمًا جدًا بالنسبة لهيغل، الدولة هي المؤسسة الرئيسية التي تعبر عن تجسيد للعقل في العالم التاريخي وهي تجسيد للحرية. يرى هيغل أن التاريخ هو عبارة عن عملية تطور للعقل، والدولة هي الشكل الذي يتجلى فيه العقل ويحكم التطور التاريخي.

قدم هيغل بالدولة كوحدة مؤسسية تجمع بين الفرد والمجتمع، وهي الوسيلة التي يمكن من خلالها تحقيق التطور والتقدم في فهم العقل والحرية في نظره، تعكس الدولة الفكر العام للمجتمع وتتجلى فيها القيم والمبادئ التي يتحد بها الأفراد.

مفهوم "الدولة" عند هيغل لا يقتصر على المؤسسة السياسية فقط، بل يمتد ليشمل الجوانب الاقتصادية والاجتماعية أيضًا. يرى هيغل أن الدولة تلعب دورًا حيويًا في توجيه التاريخ نحو تحقيق الهدف النهائي، وهو تحقيق وتجسيد الحرية وتحقيق العقل في العالم وهي التجسيد الحضاري للعقل، ومن خلال تطور الدولة، يحدث التطور التاريخي والفلسفي. فمسار التاريخ عند هيغل هو عرض لحركة الروح، الروح الحرة و من ثم كان مسار التاريخ عنده هو تقدم الوعي بالحرية، لكنها ليست حرية فردية سلبية كحرية الشرق.

من هذا المفهوم العام وضع هيغل نظريته الرئيسية وهي "الدياليكتيك"، والتي قدمها في كتابه "رسم التاريخ العالمي" (كتاب الفلسفة التاريخ). في هذا العمل، قدم هيغل رؤيته للتاريخ كعملية دياليكتيكية

تتطور بمفهوم "تلقائي"، حيث يتم التغلب على التناقضات والصراعات في التاريخ من خلال التطور التاريخي نحو تحقيق الحرية الذاتية والوعي.

يقول ول ديورانت:

"إن التاريخ – عند هيجل – حركة منطقية (جدلية)، وهو في الغالب سلسلة من الثورات، يستخدم فيها "المطلَق" الشعوب إثر الشعوب والعباقرة إثر العباقرة أدوات في تحقيق النمو والتطور (نحو الحرية) إن هذه العملية المنطقية (الجدلية) في سير التاريخ تجعل من التغيير مبدأ الحياة الأساسي، إذ لا شيء خالد، وفي كل مرحلة من مراحل التاريخ يوجد تناقض وتعارض لا يقوى على حله سوى صراع الأضداد والتاريخ هو نمو نحو الحرية وتطورها"

هذه هي نظرة هيجل للتاريخ باعتباره مسرحا للجدلية (الديالكتيك)، سعيا للرقي بالوعي والوصول للحرية، فهو يرى أن التاريخ هو مسار يعبر عن التقدم من خلال الشعور بالحرية، وهذا المسار لا يكون إلا من خلال صراع المتناقضات، وفقًا لمنطقه الجدلي، وفي كل دورة جدلية نتقدم نحو الأفضل والأرقى في الشعور بالحرية، وهو لا يرى أن الحروب والصراعات بين الأمم ضرورية للتقدم فحسب، بل إنه يرى أن فترات الرخاء والهناء والسلام الخالية من التناقض، ليست عصورًا تاريخية، ولا تعتبر مرحلة تاريخية أثناء عرض مراحل التاريخ!

الدولة عند هيغل، مركب من الفرد والأسرة والمجتمع المدني فهي التحقق الفكري للحرية وبالتالي للفكرة الأخلاقية بوصفها إرادة جوهرية تتجلى أمام ذاتها

في هذا السياق، يمكن اعتبار هيغل مؤسسًا للتفكير الفلسفي حول التطور التاريخي والمفهوم الدايالكتيكي. يُشير بعض النقاد إلى أن نظرية هيغل كان لها تأثير كبير على الفلسفة والتفكير الاجتماعي في العديد من المجالات، وهي مصدر إلهام للفلاسفة اللاحقين مثل ماركس وإنجلز.